مجلة لونارد علمية محكمة تصدر عن مجموعة لونارد للفن والعمارة والتراث بلندن، المملكة المتحدة
Issue 3, Volume 1, May 2011, ISSN: 2045 - 8150 العدد الثالث, السنة الأولى – مايو 2011

مراجعات نقدية: هيئة نقاد العمارة العربية

أزمة العمارة المسجدية

وليد أحمد السيد
مؤسس مشارك - هيئة نقاد العمارة العربية بلندن

[1] هيئة نقاد العمارة العربية تأسست بلندن في 17 سبتمبر 2010, من قبل الدكتور مشاري بن عبد الله النعيم وكاتب هذه السطور.

مقدمة

مرت العمارة المسجدية منذ بداية نشأتها الأولى وحتى الوقت الحاضر بتطورات ملحوظة امتدت على مدى بضعة عصور إسلامية متلاحقة منذ نشأة أول مسجد في الإسلام. وهي تطورات عمرانية لها متعلقات ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية, وأخرى تبلورت في سياق تطور الفكر والإجتهاد الديني, تشكل بمجملها ما يمكن تسميته "تاريخ العمارة المسجدية". ولتأمل وقراءة هذا التاريخ قراءة واعية لا بد من تحديد الأسس التي تقف عليها المراجعة النقدية, وبخاصة أن هذا التطور التاريخي الممتد والمتلاحق ينبغي أن يتضمن قراءة نشأة العديد من المفردات بأنماطها المختلفة وضمن سياقاتها التاريخية وتحولاتها الزمكانية, كما يجب أن يشمل دوافع وظروف وملابسات إفرازها, وعوامل وسياقات ثقافية واجتماعية, والأهم سياسية, أدت كلها لإفراز "العمارة المسجدية" على امتداد العالم الإسلامية بملامح ومقومات عامة أضحت "أنماطا" معمارية للعمارة المسجدية التي جسدت علاقات بين العام والخاص, بين الدين والدولة, بين الذات والآخر في إطار الهوية, وبين الخصوصية الحضارية والتغريب الثقافي, إلى آخر هذه التباينات التي تتكرس ضمن إطار أشمل يفرز إشكالية التراث والحداثة. والإشكالية الأهم اليوم باتت تقدم نفسها ضمن أطر وملامح الهوية الثقافية وتأزمات التعددية الفكرية والدينية والعلاقة مع الآخر, سواء في دار الإسلام أم الهجرة, والتي تؤطر علاقات المسلمين بغيرهم. وهذا بات ينحى مؤخرا بعدا "معولما" تجسده علاقات الشك والريبة من الإثنيات بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أوروبا بما بات يحتم ضرورة مراجعة الأسس التي تقف عليها العمارة المسجدية وكيفية التعامل معها في عالم معولم متشكك, وفي حالات اسوأ, رافض للتعددية الدينية وتحديدا الإسلامية. نقطة المراجعة الأساسية في مساحتنا هذه ستنطلق من تحديد العلاقة الجدلية والفصام المتزايد بين الدين والدنيا, أو سلطة الحكم الدنيوية وبين الحاكمية الإلهية – بما انعكس حتما على الرؤية والفهم "الأساسي" الذي تبلور في فجر الإسلام لمفهوم "المسجد". هذه كلها تشكل الأطر العامة لخواطر وتأملات نقدية حول إشكالية ما يمكن تعريفه **"بأزمة العمارة المسجدية"**

تأسيس المسجد في الإسلام

تزخر كتب السيرة النبوية والصحيحين بروايات تأسيس المسجد النبوي بعد الهجرة من مكة للمدينة المنورة بما شكل بداية العمارة المسجدية في فجر الإسلام. ويعنينا هنا تتبع بعض الملاحظات الأساسية في آلية اختيار موقع المسجد وهيئة عمرانه بما يمكننا من قراءة "الحدث العمراني التاريخي" قراءة متأنية في إطار مراجعة تاريخية لدور المسجد وبما يخدم فرضيتنا في وجود تطورات وتحورات طرأت على "العمارة المسجدية" شكلت أسس الأزمة وأسست لها, وبما يفرض ضرورة إعادة القراءة من زوايا عمرانية, ودينية فقهية اجتهادية لها أهلها, في إطار تحديات الهوية مع الآخر وتحديات وأطر عالم معولم تغير سياسيا ودينيا بعد العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

في رواية أنس بن مالك في البخاري قال: كنت إذ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ابن تسع سنين, فأسمع الغلمان يقولون, جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نرى شيئا, حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر, فكمنّا في خرب في طرف المدينة وأرسلا رجلا يؤذن لهما الأنصار, فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى جاءوا إليهما. ويقول: فما رأيت مثل ذلك اليوم قط, والله لقد أضاء منهما كل شيء. ونزلا بقباء على كلثوم بن الهدم, ثم ذكر تأسيس مسجد قباء. ولبث رسول الله صلى الله عليه سلم عند كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف (بطن من الأوس) في قباء بقية يوم الإثنين الذي وصل فيه, والثلاثاء وأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة. وأسس في قباء المسجد الذي أسس على التقوى الذي نزلت فيه الآية (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ

عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108)) – سورة التوبة.

وكان خروجه منها يوم الجمعة حين ارتفع النهار فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي ببطن وادي (رانونا), فكانت أول جمعة صلاها في المدينة. ثم أتاه رجال من بني سالم فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة, فقال صلى الله عليه وسلمو خلوا سبيلها (يعني ناقته) فإنها مأمورة. ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم عن يمين الطريق حتى جاء بني الحبلى فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبي, فلما رآه ابن أبي وهو عند مزاحم أي الأطم محتبيا قال: إذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم, فقال سعد بن عبادة لا تجد يا رسول الله في نفسك من قوله, فقد قدمت علينا الخزرج تريد أن تملكه عليها, ولكن هذه داري, فمر ببني ساعدة فقال له سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة: هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد. وتدل الروايات المفصلة, أنه كلما مر الرسول الكريم على دور قوم من الأنصار دعوه لضيافتهم فيعتذر ويقول: "دعوها فإنها مأمورة" حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم, وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين, وكان مربدا لغلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت راحلته: هذا إن شاء الله المنزل, وقال: اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين, قاله أربع مرات. ثم دعا الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقال: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى أن يقبله هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا. [1]

واختلفت الروايات في أمر الذي كان في حجرة اليتيمين, لكنها أجمعت أن الرسول صلى الله عليه وسلم اشترى المربد من اليتيمين بعشرة دنانير ذهبا دفعها أبو بكر الصديق من ماله. ولما أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم المربد, كان فيه نخل وقبور المشركين وخرب, فأمر بالنخل فقطع, وبقبور المشركين فنبشت, وبالخرب فسويت, فصفوا قبلة له, وجعلوا عضاديته حجارة. [2] ويروي أبن كثير: كان المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيا باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل. ويضيف فيقول: إنه كان في جوف الأرض, أي أرض المربد, قبور جاهلية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنبشت فرمى بعظامها, فأمر بها فغيبت, وكان في المربد ماء مستنجل فسيره حتى ذهب. [3]

أما عن مساحة المسجد الذي بني مباشرة بعد الهجرة إلى المدينة المنورة فتروي السيرة التاريخية أنه كان سبعين ذراعا من الشمال إلى الجنوب وستين من الشرق إلى الغرب. ويصف ابن سعد في "الطبقات" [4] كيفية بناء المسجد ومن عمل به من المتخصصين في طريقة البناء بالطمى واللبن فيقول: وجاء رجل يحسن عجن الطين, وكان من حضرموت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم, رحم الله امرأ أحسن صنعته, وقال له: الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه.

وتشير الروايات التاريخية أن الرسول صلى الله عليه وسلم زاد في مساحة مسجده حتى يستطيع استيعاب الأعداد المتزايدة من المصلين وبخاصة بعد انتشار الإسلام عقب صلح الحديبية سنة 6 هجرية, وكذلك بعد انتصاره صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر وفدك ووادي القرى في غزوة خيبر سنة 7 هجرية. أما أهل الصُفّة فهي ظله في مؤخر مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يأوي إليها المساكين, ومكانها بحسب وصف الروايات فكانت القبلة قبل أن تحوّل في شمال المسجد فلما حوّلت القبلة إلى حائط المسجد الجنوبي, حلّت الصُفّة في ضلع المسجد الشمالي. [5] وهي مكان مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل, وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر. [6] يروي البيهقي عن عثمان بن اليمان, أنه لما كثر المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم دار مأوى أنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وسماهم أصحاب الصفة, فكان يجالسهم ويأنس بهم. [7] ومعلوم أن المسجد النبوي الذي أسسه في المدينة المنورة لم يكن وحيدا, فهناك مسجد قباء المذكور آنفا, ومسجد القبلتين الذي تحولت فيه القبلة من بيت المقدس للكعبة المشرفة, وهو مسجد ابن سلمة. [8] ومن أوائل الأماكن التي سجد بها محمد صلى الله عليه وسلم لله سبحانه عندما فرضت عليه الصلاة بمكة كان موضع يسمى "المعجن", وكان ذلك قبل هجرته بعام أو بعام ونصف على اختلاف الروايات.

قراءة أولية في العمارة المسجدية من منظور عمراني اجتماعي وسياسي

بمراجعة النص التاريخي,يتبدى استحقاق "الازمني" لوثيقة, يتمحور حولها زمن العمارة المسجدية, وبما يشكل "خارطة الطريق" ومرجعية "للأسس" التي قامت عليها عمارة المسجد في فجر الإسلام, ويعطي دلالات استرشادية للأسس التي تقوم عليها إلى قيام الساعة بصرف النظر عن التزاوج الذي يطرأ بين الدين والسياسة والعلاقة الجدلية بينهما – اتفاقا وانفصالا. فالهجرة النبوية الشريفة من مكة للمدينة والإستحقاق السياسي الذي ستلعبه "دار الهجرة" الجديدة بما تستدعيه متطلبات "تأسيس" الدولة الجديدة المناوئة لدار الكفر, بكل ما تعنيه الكلمة من مضامين "السياسة" والقيادة والزعامة, كان يتطلب استدعاء عاجلا وملحّا قبل أي أمر آخر بعيد الهجرة لترسيم أبعاد "البنيان الديني" ورسم ملامح هذه المؤسسة المهمة – والتي سنرى أنها ستتجاوز البعد الديني لأبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية كلها تجمعت في ظاهرة عمرانية واحدة. ولذلك فالحدث التاريخي "الأول" باختيار مكان المسجد كدار ومؤسسة للقيادة السياسية يغني عن الإستطراد في قراءة الحدث لوضوحه. لكن ثمة دلالات يمكن الوقوف عندهما بشيء من التأمل منها ملاحظة دقة ترسيم العلاقة (الإلهية-البشرية) وحدود (الوحي-الخبرة البشرية) في بناء وتخطيط المسجد. وهي علاقات ترسمت بملامح واضحة تبين حدود خصوصية الواقعة التاريخية بمتعلقاتها النبوية, وبين الإجتهاد البشري وتراكمات الخبرة الإنسانية في إبداع البيئة والعمران الإنساني دون انتقاصه أو تهميشه حتى في واقعة مهمة كهذه تتأسس معها أبجديات العمارة المسجدية لدين فيه حياة الإنسانية إلى قيام الساعة. هذه العلاقة الحق العدل بين (الوحي- والخبرة البشرية) تضع حجر الزاوية والأساس لاحقا لقراءة المشهد بكافة تداعياته ولتنفي أوهام من قد يتشبث بالوحي والنقل على حساب العقل في قراءة المشهد العمراني أو البيئي للعمارة المسجدية, ولتدحض "اضغاث" أحلام من يبتدع "فقه العمران" ويحاول أن يرد الشأن كله للدين في "عمارة المسجد" –

ملبسا على المسلمين دينهم ودنياهم! فهي عمارة "تشاركية" ضمن ضوابط ومحددات إلهية نقلية, ولكن باجتهادات ومفرزات بشرية إلى يوم القيامة. فحادثة اختيار المكان, وشرائه, "وإعداده" بما تضمنه الموقع من تراكمات تاريخية تحت الأرض ("مقبرة جاهلية" أو مجرى مائي قديم) كلها ردت للعلم الغيبي في هذا الإختيار ذي الخصوصية للنبي الكريم, خصوصية تتجلى معها أبعاد مكانية ولكنها "لازمانية", بها ما بها من التفرد التاريخي في صدر الإسلام – وبشكل لا يغلق باب الإجتهادات البشرية, رغم عدم أهميتها أو قلة تأثيرها على الحدث "التاريخي" نفسه. فمثلا يمكن لنا أن نقرأ في رد الأمر للإختيار الرباني في "أمر الناقة" بأن تنيخ في مكان المسجد, تلطفا ورفقة بأخلاق النبي وصحبه, كي تقدم عذرا للنبي الكريم, كقائد ورسول, يعفيه من الإرهاصات والتداعيات, الأخلاقية التحيزية والإستحقاقات السياسية, في تفضيل النزول عند قوم دون آخرين بما قد يرجح كفة هؤلاء على أولئك, سياسيا ودينيا. إذن هذه قراءة واحدة, تترك بعدها لأهل الفقه والإجتهاد إلى يوم الدين إعادة قراءة المشهد وتأمل دلالاته وتداعياته.

"النص التاريخي في عمارة المسجد النبوي بالمدينة المنورة يقدم استحقاقا "لازمنيا" لوثيقة, يتمحور حولها زمن العمارة المسجدية, وبما يشكل "خارطة الطريق" ومرجعية "للأسس" التي قامت عليها عمارة المسجد في فجر الإسلام, ويعطي دلالات استرشادية للأسس الإجتهادية التي تقوم عليها إلى قيام الساعة بصرف النظر عن التزاوج الذي يطرأ بين الدين والسياسة والعلاقة الجدلية بينهما – اتفاقا وانفصالا"

وبالرغم من خصوصية "اختيار" الموضع المكاني للمسجد الأول, كرمز ومقر للقيادة الدينية والسياسية للدين الجديد, فقد تركت بقية "الأرض" فضاء واسعا ومفتوحا للإجتهاد البشري في تحديد مواضع "السجود" اعتمادا على معايير "بشرية" دون "الوحي" كما حدث في الواقعة التاريخية الأولى الخاصة بالنبوة. ومن هنا جاء الحديث الشريف صريحا في فتح الباب على مصراعيه أمام الأمة في ذلك, وفي تقرير صريح لمفهوم المسجد في الإسلام. فالمسجد بالكسر اسم لمكان السجود, والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود, والمسجد بكسر الميم هي الخُمرة وهي الحصير الصغير. وتدل الأحاديث النبوية الشريفة في كتب السيرة والفقه في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على الخُمرة وهي حصيرة صغيرة قدر ما يسجد عليه. تنسج من السعف. ويصفها الشهرستاني أنها مقدار ما يضع الرجل عليه في سجوده من حصير. [9] والمسجد كاصطلاح شرعي هو الموضع الذي يسجد فيه. [10] لقوله صلى الله عليه وسلم: وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" ويقول القاضي عياض كما يروي الزركشي في اعلام الساجد بأحكام المساجد [11] : " وهذا من خصائص هذه الأمة, لأن من قبلنا, كانوا لا يصلون إلا في موضع يتيقنون طهارته, ونحن خصصنا بجواز الصلاة في جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته, وقال القرطبي هذا ما خص الله به نبيه, وكانت الأنبياء قبله إنما أبيحت لهم الصلوات في مواضع مخصوصة كالبيع (جمع بيعة) وهو معبد اليهود والنصارى. ويعلق الزركشي فيقول فكأنه قال: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وجعلت لغيري مسجدا ولم تجعل له طهورا.

"المسجد "النبوي" الأساس في تاريخ الإسلام لـه دلالات واستحقاقات عمرانية واجتماعية وسياسية يمكن قراءتها في تاريخ "المكان" والفضاء الحضري للمسجد النبوي"

وهذا هو الظاهر من حديث جابر وأبي هريرة في عهد الطهور والمسجد في حكم الواحد. في شرح البخاري لابن الملقن ورد عن النبي الكريم قوله (ص): "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأينما أدركتك الصلاة فصلّ" [12] وكما ورد أيضا في الجامع الصغير للسيوطي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"فضلت بأربع: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أتى الصلاة فلم يجد ما يصلي عليه وجد الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الناس كافة ونصرت بالرعب من مسيرة شهرين يسير بين يدي، وأحلت لي الغنائم"[13] وفي حديث صحيح أخر قوله (ص): "فضلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى الناس كافة، وادخرت شفاعتي لأمتي، ونصرت بالرعب شهرا أمامي، وشهرا خلفي، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي" [14] وفي رواية مختلف في إرسالها ووصلها "إلا المقبرة والحمام" [15] وفي رواية "وتربتها طهورا" [16] ويفسر الزركشي السبب في اختيار كلمة مسجد لمكان الصلاة فيقول: لما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه. أما لفظ الجامع فوصف للمسجد الكبير, ويروى أن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد, فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك, وكتب إلى أمراء أجناد الشام, فكان الناس مستمسكين بأمر عمر وعهده". فالجامع هو المسجد الذي تؤدي فيه الجماعة صلاة الجمعة.

المسجد "النبوي" الأساس في تاريخ الإسلام له دلالات واستحقاقات عمرانية واجتماعية وسياسية يمكن قراءتها في تاريخ "المكان" والفضاء الحضري للمسجد النبوي بشكله المستطيل وما حوله. فمن ناحية عمرانية, فالمسجد النبوي بتخطيطه الذي تورده الروايات التاريخية والذي يمكن بحسبها ترسيم مخطط توضيحي يبين مسجدا في غاية البساطة, (أنظر الشكل 1)

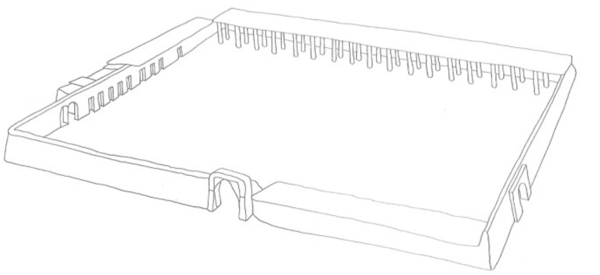

الشكل رقم (1): رسم تخطيطي مستوحى من الروايات التاريخية لتخطيط المسجد النبوي قرب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة. المصدر (Bloom: 24)

هو أقرب ما يكون للبيت القروي الريفي المجاور لساحة فسيحة تحيط بها أروقة محمولة على أعمدة النخيل لتغطية جانب منه, فيما تصطف مجموعة من الحجرات في جانب منه, وتغيب عن ملامحه العمرانية أية عناصر اشتهرت بها عمارة المساجد لاحقا مثل المئذنة أو القبة وسواها مما غدت بمثابة مفردات "نمطية" أضحت إشارات ودلالات رمزية لعمارة المسجد في الإسلام على مدى العصور المتلاحقة. أما المئذنة فيشار إلى أن بلالا كان يعتلي أسطوانة للنداء للصلاة, ولم تتطور المئذنة, بحسب المصادر التاريخية إلا لاحقا في دمشق, ومنبر الرسول لم يجاوز الدرجتين من جذع نخلة. وهكذا فعناصر المسجد كما تطورت لاحقا كان لها "أسس" في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم, لكنها اتسمت بالتواضع والوظيفية المجردة لتحقيق الغاية المرجوة, دون أية إيماءة ولو ضمنية, للشكل أو النمط أو الطابع وهو ما تعكسه بساطة التكوين والتخطيط والتجريد في المسجد النبوي الذي هو أقرب لوصف الروايات التاريخية كما يبينه الشكل رقم (1). [17]

إذن نحن هنا أمام استحقاق تاريخي عمراني بالدرجة الأولى تقرره أفعال وأقوال الرسول بحق العمارة المسجدية بشكلها الفطري الطبيعي الذي يكرس نص الحديث الشريف بأن الأرض جعلت مسجدا وطهورا, ليست برمزية وإيحاءات ضمنية ولكن بتنفيذ حرفي لنص الحديث النبوي بشكل يحيل عمارة المسجد إلى "فضاء مكاني" أقرب منه للعمارة الفطرية دون اسراف أو إسفاف. والسؤال الذي يطرح هنا: هل كانت العمارة المسجدية في فجر الإسلام ضرورة حتمية لانعكاس مباشر لطبيعة المجتمع الإسلامي البسيط ومتناسبة مع عمارته وبيئته استجابة مباشرة, لا يمكن أن تحيد عنها لظروفها الزمكانية, وبشكل يستلزم معها قراءة تطورها على أنه خروج عن النص الأصلي بمحتواه ومضمونه وشكله سواء بسواء, وبحيث كان التطور التاريخي لاحقا للعمارة المسجدية بكل أنماطها وأشكالها وزخرفتها وتطور مفرداتها ببساطة هي عملية خروج صارخة عن النص الأصلي, وأن هذه العمارة المسجدية الأولى هي بداية ونهاية الطريق لما يجب أن تكون عليه عمارة المسجد, أو بشكل أقرب ما يكون لها, إن كان للعمارة المسجدية أن تتبع "خارطة الطريق" التي رسمتها السنة النبوية؟ وهل ما زاد عن ذلك من تطور وإسفاف لاحقا, يتنافى مع جوهر ومقصد العمارة المسجدية ولا يعد تطورا طبيعيا واستحقاقا تاريخيا عمرانيا يتجاوب مع تطورات زمكانية وسياسية واقتصادية واجتماعية طبيعية؟

قد يبدو الشق الثاني من التساؤلات طبيعيا من وجهة نظر معمارية دأبت على قراءة العمران على أنه تطور طبيعي في المجالات المذكورة, بحيث يستحيل النظر للعمارة المسجدية بإطار متقوقع في التصور البسيط لعمارة المسجد النبوي, وبما يجعل انحصار العمران في تلك الدائرة البيئية والتراثية الضيقة ضربا من العكوف على الماضي بحذافيره. هذه إجابة ابتدائية على التساؤلات أو على الأقل استجابة عاجلة للشق الثاني منها. لكن الوجه الآخر للعملة في هذه المسألة يتضمن علاقة جدلية بين الشكل والجوهر, ليس فقط في عمارة المسجد, ولكن يتجاوز حدود ذلك ليشمل المحتوى الظرفي, الزماني والمكاني, الذي سيطرأ على العمارة المسجدية إلى قيام الساعة. وهي واحدة من المعجزات النبوية التي تتيحها القراءة العميقة لعمارة المسجد في الإسلام, وبما بدأ يظهر بعد أكثر من ألف واربعمائة وثلاثين عاما وأضحى يتكرس "كأزمة العمارة المسجدية" اليوم, لا "كأزمة" متعلقة بالعمارة والبناء فحسب, لكنها أزمة متعلقة بعلاقة الظاهر بالباطن وعلاقة الشكل بالوظيفة, والأهم من ذلك كله علاقة المسجد بما حوله, في بلاد المسلمين وفي بلاد الغرب سواء بسواء.

ولذلك فجزء من الإجابة تبدو في ضرورة الإستحضار العاجل لمفاهيم العمارة المسجدية في الغرب اليوم وما تتعرض له من حملات بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر – وفيها تبدو أبرز تجليات الخروج عن النص التاريخي الأصلي في مجتمعات مسلمة "عادت غريبة في بيئاتها كغرابة الإسلام حين بدأ". وبرغم أننا في بداية مراجعتنا لا نتبني موقفا, لا حداثويا ولا تاريخيا حرفيا بمرجعية فقهية, كي نقطع الطريق ابتداء على أية محاولة قفز ابتدائية للنتائج. لكن فرضيتنا بوجود دورة تاريخية وعود على بدء قد تدعمها إرهاصات للعمارة المسجدية وتحديات الهوية في الغرب اليوم ضمن تحديات الهوية ورمزية عمارة المسجد. ولعل لهذه الدورة التاريخية المفترضة استحقاق فقهي يطل من الحديث "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" وحديث آخر "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا..."[18] بما يوحي بدورة زمنية محكمة تعيد اللاحق للسابقة وتكرس "عودا على بدء", عودا قد يكون أقرب للحرفية منه للاستيحاء الضمني. ولتتبع هذه الفرضية وهذه الأطروحة سنعمد لتفكيكها في سياق مراجعتنا هذه لاحقا.

من ناحية اجتماعية متعلقة بالمسجد كموئل مجتمعي, فأهل الصفة تمثل برأينا العلاقة بين المؤسسة الدينية التي يعكسها فضاء المسجد ووظيفته وبين عامة الناس ومساكينهم, هو تلاحم بين البيئة الإجتماعية من أسفل الهرم فيها وبين القيادتين الدينية والسياسية مجتمعتين في جسم واحد. حجرات النبي المحيطة بأحد أضلاع المسجد تعكس طبيعة العلاقة اللصيقة بين دور المسجد في المجتمع وبين موقع القيادة السياسية-الدينية من هذا الجسم المجتمعي. وثمة قراءة أخرى في المشهد التاريخي تتيحها دلالات العلاقة بين الوحي وبين العقل والخبرة الإنسانية , تخص هيئة وعمارة المسجد واستعانة الرسول الكريم بأهل الدراية والخبرة في بناءه – واستحضار البنّاء الحضرمي الماهر الذي يجيد خلط اللبن, واستماع النبي الكريم لرأي "العامة" وأهل المدينة في تغطية جزء منه بسعف النخيل, وتنفيذ ما صلح من رأيهم, فليس الامر كله وحي, بل هناك وحي وهناك رأي ومشورة وخبرة.

تحولات تاريخية في عمارة المسجد ودلالاته

الدلالات السياسية للمسجد في الإسلام تبلورت منذ تأسيسه في المدينة المنورة, فكان هو مقر الحكومة وبرلمان الأمة فيه تناقش المسائل تحت الشمس دون حجب أو حرس بين القيادة السياسية وبين الأمة, تدق طبول الحرب, ويقدم العامة مشوراتهم فيما ليس فيه وحي, ويؤخذ رأيهم ويرد, تعلن وفاة قائد الأمة ونبيها فيه, ويأوي إليه عابر السبيل كأول محطة للإستجارة بحمى المجتمع المحلي, وتروى فيه قصص الأولين والآخرين, وتجتمع فيه الأمة صباح مساء, وتلتقي أسبوعيا لتستمع لخطاب القيادة, وهي ذات القيادة التي تشرع وتقنن للناس ما يفيدهم في حياتهم وأخراهم. ما يلاحظ لاحقا أن هذه الدلالات والمأسسة المسجدية باتت تنفصل وتفصل ضمن "عدة مؤسسات" وبتمظهرات عمرانية مستقلة شكلت تطورات تاريخية بعيدا عن الوثيقة التأسيسية الأولى لدور المسجد. ولم يقتصر المسلمون على استعمال كلمة المسجد لأماكن العبادة بل كان يؤدي عدة وظائف أخرى منها النواحي الثقافية كمدرسة حيث تعددت حلقات الدرس والوعظ إضافة لأغراض مدنية ودينية من فض المنازعات, كما احتوى على بيت المال, وهو دور برز لاحقا في المسجد الأموي وجامع عمرو بن العاص.

في العصر الأموي وما تلاه بدأ المسجد يتحول "الرمز" سياسي لتكريس سلطة الدولة من خلال التعبير العمراني والمعماري عن "ايقونة" لاستمالة الدين لصالح الحاكم – وهو أبرز التحولات الجذرية في "تغيير" رسالة المسجد من "مقر لخدمة الأمة" إلى مقر "لتطويع" الأمة وبسط نفوذ السياسة على الدين. واقترن المسجد الجامع بالسلطة الحاكمة أكثر من اقترانه بفكرة الإجتماع الأسبوعي لمناقشة قضايا الأمة وبث التواصل الإجتماعي والسياسي والديني الوعظي الإرشادي فيها. وبالنظر لهذا الدور المتحول في رسالة وعمارة المسجد وتطورها على مدار التاريخ الإسلامي, فقد تقلص دور المسجد "المحلي" وتهمش بشكل متفاوت بين الدول المختلفة وتبعا لمدى الصحوة الإسلامية – حتى غدا في أسوأ حالاته مقتصرا على أوقات الصلوات الخمس لفتح أبوابه- وفي أفضل الحالات بات ملجأ لمن باتت إحدى قدميه على حافة القبر في معظم الأحيان. وفي عصور الصحوة الشبابية والإسلامية باتت رسالته تنحى منحى "فئويا" وايديولوجيا شلليا لأنصار هذه الجماعة أو تلك من مخرجات العصور الحديثة التي قدمت جماعات إسلامية باجتهادات فقهية وسياسية متباينة كرست استخدام المسجد كمنصة ومحطة "تجنيد" فئوية تقسم عموما المسلمين شيعا وفرقا وأحزابا – تزيد فرقة كلمتهم بدل أن يعمل على جمعهم.

ومن هنا تحول المسجد الجامع إلى رمز سياسي تابع للدولة في حالات, وتابعا لفئات ايديولوجية في حالات أخرى. في الحالة الأولى أصبحت من مهمات الحاكم الإداري في الأمصار والأقاليم إقامة مسجد جامع يمثل مسجد الدولة الرسمي. وأصبحت خطبة الجمعة في المسجد الجامع بمثابة دلالة سياسية لها إمارات خلع الخلافة او إقرارها ويتمثل ذلك في ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة في المسجد الجامع – مما جمع بين الدور الديني والسياسي للمسجد الجامع منذ ذلك الوقت وحتى اليوم. في الحالة الثانية أصبح المسجد حلبة "صراع" بين الفئات والفرق الإسلامية لتكريس هيمنتها وفرض برامجها على عموم المسلمين ضمن صراعات اجتهادية يقف عموم المصلين منها موقفا حذرا وموقف المتفرج والنافر – ربما كرسه الفصام بين الدين والسياسة وعدم تزاوج الإثنين برعاية السلطة الحاكمة كما بدأت به رسالة المسجد في فجر الإسلام.

من ناحية عمرانية تطورية فقد استمر المسلمون في نهج بناء المساجد على غرار المسجد النبوي بالمدينة المنورة وظهر ذلك في مسجد البصرة سنة 14 هجرية ومسجد الكوفة سنة 17 هجرية. واستمرت هذه السنة في بناء المسجد بطريقة بسيطة متواضعة في مسجد عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط سنة 21 هجرية بمساحة 50 و 30 ذراعا وجدران من اللبن واعمدة من جذوع النخل. ومساجد البصرة والكوفة ومصر كانت خالية من المحاريب المجوفة والمنابر والمآذن. ويروى أن عمرو بن العاص أراد أن يتخذ له منبرا في مسجده, فكتب له عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا:" أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلس تحت عقبيك", فكسره.

"المسجد تحول "الرمز" سياسي لتكريس سلطة الدولة من خلال التعبير العمراني والمعماري عن "ايقونة" لاستمالة الدين لصالح الحاكم – وهو أبرز التحولات الجذرية في "تغيير" رسالة المسجد من "مقر لخدمة الأمة" إلى مقر "لتطويع" الأمة وبسط نفوذ السياسة على الدين"

في العصرين الاموي وبداية العصر العباسي تغيرت سمات المسجد وبدأت تظهر بأنماط معمارية متعددة وحتى القرن الرابع الهجري صحن مكشوف تحيط به الأروقة من ثلاث جهات أو من جهتين أكبرها إيوان القبلة, كما احتوى المسجد على محراب ومنبر ومئذنة وميضأة. وبدأت تخطيط المساجد يختلف بين الأقاليم وكان يغلب عليه المربع في العراق وإيران والمستطيل في مصر والشام وشمال افريقيا. وفي العصر العثماني اختلف تصميم المساجد كثيرا عن النمط السابق بحيث لم يعد المسجد يشبه المسجد التقليدي ولا المدرسة, والدافع كان سياسيا لصبغ الولايات التابعة لها بصبغة نمطية لتأكيد التبعية السياسية. فقد اتخذ العثمانيون من طراز المصليات السلجوقية في القرن الخامس الهجري أساسا لعمارتهم.[19] وكان التخطيط العثماني يعتمد القبة الكبيرة من الحجر وتحيط بها من جميع الجوانب عدا جانب القبلة إيوانات محمولة على أكتاف تعلوها قباب صغيرة, ومثالها مسجد سنان ومسجد محمد علي بالقلعة وهو نسخة من مسجد السلطان أحمد باسطنبول. وهناك عمائر دينية ظهرت في العصر العثماني غير المساجد وهي التكايا التي حلت محل الخانقاوات بنفس الوظيفة لغايات خاصة للمنقطعين للعبادة. ومن نواحي معمارية تباينت الطرز لها وتشبه تخطيط المنزل ذي الفناء المتسع وتحيط به مجموعة ايوانت وقاعات متسعة ومسجد, وبالطابق العلوي بها غرف للمبيت ويلحق بها دورات مياه

ومنزل لشيخ التكية. ويروى أنا أصبحت مأوى للعاطلين عن العمل من العثمانيين الوافدين وأصبحت تسمى مأوى تنابل السلطان الكسالى.

أزمة العمارة المسجدية

طاف بذهني هذا المصطلح خلال بضع عشرات من الدقائق أثناء جلوسي تحت قبة مسجد جامع بمدينة عربية مسلمة عام 2005 إذ تزاحمت العديد من القضايا المتعلقة بالمساجد وعمارتها وعادت بي الذكريات قبل أكثر من 15 عاما إذ وقعت عيناي للمرة الأولى على مسجد السلطان حسن بالقاهرة الفاطمية وراعتني ضخامة كتلته من الخارج التي تتحدى, وتحطم, المقياس الإنساني. تحت تلك القبة الكبيرة الموشحة بالزخارف الثمينة والتي تصرف قلب وعقل المسلم عن الدعاء والتأمل والخشوع الروحاني المفترض في حضرة جو المسجد الإيماني, تدافعت مشاعر مختلطة بثتها العمارة المسجدية في الإسلام بعامة, التاريخية والمعاصرة سواء بسواء – أطلقتها زخارف تلك القبة. وتدافعت العلاقة الجدلية بين سلطة الحكم وبين الحاكمة الإلهية والرسالة المفترضة للمسجد باستحضار الآية الكريمة التي دارت بذهني آنئذ (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)) – سورة الجن. المساجد لله, للعبادة, لذكر الله, ودعائه والتواصل معه بالقلب والعقل والروح, وهذه الزخارف وهذا التشويش, من الحاكم ببناء مساجد "للدولة" ترصد لها الغالي والنفيس من الميزانيات, وتفرش فيها البسط التي تدخل موسوعات "جينيس" بمساحتها وطريقة وزمن إعدادها, كل ذلك بمثابة "محطات" تشويش, ومساجد "ضرار" داخل فضاء المسجد الواحد – فالحاكمية يجب أن تكون لله وحده, والمساجد لله, فلا تشويش ولا "محطات بث" تلهي الساجد عن سجوده, ولا العابد عن عبادته.

مراجعة عمارة المساجد على مدى العصور الإسلامية وفي أنحاء مختلفة من أصقاع العالم الإسلامي المترامي تكشف حقيقة أن المساجد أضحت "صرحية" صنمية بتشكيلاتها المعمارية, وذات صبغة "نمطية", تكاد تستحضر توقفا زمنيا عند حقبة معمارية لم تتجاوزه كمعطى مقدس طقوسي باستحضار مفردات وعناصر وتشكيلات شبه ثابتة. وفي العصر الحديث برز ذلك بشكل وكأنه موروث عمراني لا مفر منه, وتطور طرديا بشكل متمدد غير مسبوق- يعكس أكثر ما يعكسه رغبة في المبالغة في التشكيل وتكريس الصرحية لإعطاء سيطرة الدولة والحكم أكثر مما يلبي حاجات وضرورات مستجدة. ومن المهم هنا الإشارة الى التمييز بين ضرورات التشكيل الحجمي الكتلي بما يتناسب مع سعة المسجد وبين المغالاة المقصودة لإبراز المسجد كمعلم صنمي يتمدد عموديا بشكل مبالغ فيه على حساب الضرورة الأفقية لعمارة المسجد باستيعاب "عددي" مفترض لمصلين من واقع دراسة ديمغرافية أو إحصائي. وهذا يستحضر مرجعية تاريخية مشابهة تمت على أيدي الفراعنة المصريين من خلال معابدهم كمعبد الكرنك حيث كانت الغاية من العمارة آنئذ هي تأكيد سلطة الكهنة بالمجتمع من خلال صرحية معابدهم وتأكيد "قزمية" الفرد مقابل سلطة الكهنوتية الدينية التي كانت سلطة سياسية أيضا. ولا تخفى تأثيرات هذه الفكرة في العمارات الأخرى, فالكاتدرائيات والكنائس عملت جاهدة على تكريس هذا المفهوم. ومعابد الرومان واليونان تبرز ذلك بشكل صارخ جلي. ويبدو أن العمارة المسجدية "تبعت سنن من قبلنا شبرا بشبر وذراعا بذراع".

"غدت العمارة المسجدية وسيلة سياسية لتكريس حكم سياسي وإعلان تقارب وتآلف (سياسي –ديني) تكرسه بشكل صارخ التشكيلات المعمارية وبحيث يكون المعمار هو الأداة الفعالة لتثبيت تلك الفكرة"

والأمثلة التاريخية تقدم نماذج تدعم هذه الأطروحة, فمسجد السلطان حسن بالقاهرة يجسد هيمنة سياسية وبخاصة إذا علمنا, وكما يروي تاريخ الصراع بين المماليك, أن إحدى الغايات السياسية والأساسية من إنشاءه كانت لنصب المنجنيق من على سطحه مقابل القلعة التي تواجهه ومن هنا كانت نسبه مضخمة بشكل غير عادي. وبسبب ذلك أيضا تهدمت أكثر من مئذنة من مآذنه ويعتقد أن القبة الرئيسة به ليست هي الأصلية التي تشبه القبة الموجودة بالميضأة في فناءه الوسطي. ناهيك عن أن تخطيطه بالإيوانات الأربعة المحيطة بالفناء –وهو من أشهر الأمثلة في فكرة الإيوانات- كان لفكرة مذهبية لتدريس الفقه السني على المذاهب الأربعة في مواجهة المد الشيعي الممتد من شمال المغرب العربي. ولذلك شهدت العمارة الدينية بتوجيه سياسي نشاطا ملحوظا آنذاك في القاهرة في إنشاء الربط والخانقاهات الصوفية والتي, بحسب تعبير الجابري, نقلت الخطاب الديني من إطاريه البيان والبرهان النقلي والعقلي الى خطاب العرفان الغنوصي التصوفي الذي زحف الى مملكة العامة والدهماء من الناس ناشرا الخزعبلات التي ما تزال تعاني منها بعض المجتمعات بشمال إفريقيا الى اليوم.

وبذا غدت العمارة المسجدية وسيلة سياسية لتكريس حكم سياسي وإعلان تقارب وتآلف (سياسي –ديني) تكرسه بشكل صارخ التشكيلات المعمارية وبحيث يكون المعمار هو الأداة الفعالة لتثبيت تلك الفكرة وعلى مدى العصور الإسلامية المتعاقبة وبدون استثناء. ليثبت المعمار أنه قد يكون أداة طيعة في يد السياسي ولتنفيذ مآرب سياسية. وهذا الدور لم يقتصر على العمارة والتخطيط كما في حالات هاوسمان ونابليون التاريخية في تخطيط بوليفاردز باريس العريضة المستقيمة لنصب المدافع على الميادين وقمع التمرد, أو في حالات المستوطنات الإسرائيلية المعاصرة بفلسطين في بسط نفوذ الدولة العبرية مقابل الفلسطينيين, إنما يبدو أن دور المعماري كأداة سياسية قد امتد للتطاول على العمارة المسجدية الدينية في الإسلام.

المأزق "المعاصر" للعمارة المسجدية في زمن التعددية الثقافية-الفكرية والعولمة

لا يبدو "المسجد" كمؤسسة دينية, أو المسجد بعمارته, في مأزق في أي وقت مضى أكثر مما يعاني منه اليوم – وتحديدا في ظل تحولات عالمية جذرية في النظرة للفكر الإسلامي وما ينتج عنه في عالم ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. وتداعيات هذا التحول باتت تلقي بظلالها على "أسس" العلاقة بين المسجد

وبين البيئات المحيطة, ثقافيا واجتماعيا وعمرانية ودينيا وسياسيا واقتصاديا.

في ظل عالم متحول, وتطورات ديموغرافية وسياسية وعالم "إسلامي" طارد وعامل للهجرة للغرب أكثر من أي وقت مضى لاعتبارات سياسية وتكريس نظم حياة تفصل الدين عن الدنيا وتحيل الدين لمجرد فكرة في ضمير ووعي فردي اكثر منه منهج حياة, تتلاشى رسالة المسجد الأساسية ولا يبقى منها سوى هيكل "صرحي" يبنى عشوائيا ضمن نسيج عمراني حضري, وبشكل بات يلحظ بشكل درامي حيث يبنى المسجد في بيئات مغايرة شكلا ومضمونا. هذه الصورة الدرامية تبدو في العالمين, الإسلامي والمهجر, بنفس الواقع السلبي ولكن بدرجات متفاوتة. فانتقال المسجد من علاقة لصيقة بالحي والمتجاورة السكنية إلى محطة أو "استراحة" عابرة للمارة المتنقلين في مدن معولمة وسريعة باتت تحاكي محطات (take away) وتنقل المسجد من "جامع" للمجتمع المحيط به إلى "رمز" وأيقونة "معولمة" بصبغة دينية ومفردات تراثية تنتقل عبر الزمن وتتجمد عند حدود الماضي. في نفس الوقت يبدو المشهد أكثر غرابة في المهجر, وفي عالم غربي كان يؤمن بالتعددية الفكرية والدينية سابقا, وباتت تتقلص مساحة التسامح الديني عنده تجاه الإثنيات المهاجرة والمتزايدة, بما بات يزيد من حدة التوتر والنزق والصدام مع المشهد الإسلامي والديني ويضع علامات الشك والتشكك حول كل الرموز المسجدية, ولا أدل على ذلك ما شهده العالم قبل عامين من تصويت سويسري على حظر بناء "المئذنة". ولا يخفى على المتأمل أن قرار الحظر يخفي نظرة عدائية من الدين أكثر من المئذنة كمفردة ليست لها وظيفة حالية معاصرة. ومن هنا فهناك الكثير من الأصوات التي باتت تتعالى محتجة على "قصر نظر" الجاليات الدينية والإسلامية في الغرب في الإستمرار بتقديم المسجد كنمط عمراني صرحي صنمي, توارثته بدون تدبر من أولي الأمر منكم في العالم الإسلامي من الساسة عبر العصور, لمحاولة بناء مساجد جامعة كبرى في العواصم الغربية لتثبيت هوية إسلامية في وسط غير مسلم, وهذا التسامح الغربي تتجاذبه الرضى والسخط من الجاليات بما يضع المنشآت الدينية برمتها تحت "مقصلة" المشرع والبرلمان الغربي وتصل لحد عدم التساهل مع الرموز الدينية المسجدية وغيرها. ومؤخرا وقبل عدة أعوام أعلنت الجاليات المسلمة في الغرب, وبقصر نظر منقطع النظير, عن عزمها إنشاء مسجد جامع غير مسبوق بكلفة أكثر من مليار جنيه استرليني في منطقة شرق لندن, مما فتح الباب واسعا أمام تساؤلات من طراز وحجم (لماذا بناء المساجد الكبرى في أوروبا)؟

الرمز المعماري والعمارة المسجدية – المئذنة مثالا

قرار سويسرا الذي طرح في استفتاء شعبي مؤخرا بمنع بناء المآذن في المدن السويسرية, والذي تلقفته سراعا الكثير من الدول الغربية, يفتح الباب أمام تأملات في مفهوم "الرمزية" في العمارة العربية في مضمونها الإسلامي. وبعيدا عن تداعيات هذا القرار السياسية والإجتماعية والثقافية وما تداولته الكثير من الأقلام فيما يعتبر مقدمة "لصراع حضاري" في الغرب ستعيشه الجاليات العربية والمسلمة في الغرب, يفتح هذا الموضوع المهم الباب أمام تأملات نظرة فلسفية مع الإشارة لتداعياتها المرتبطة بالثقافة والحضارة في إطار فلسفة العمران. ويثير ذلك عموما في ساحة العمارة العربية المعاصرة سؤالا محوريا في شرعية وضوابط الإستعارات التاريخية "وتجريدها" وإعادة قراءتها وتفسيرها. وفضلا عن ذلك فهو موضوع محوري في ضرورة قراءة فلسفية واعية لفكرة "الرمز" في العمارة العربية و"الإسلامية", وما يرتبط بها من دلالات وإشارات تبثها الأشكال المستخدمة وارتباط الشكل الفني بالوظيفة – وخاصة في حالات "تحوّر" الوظائف عبر فترات زمنية تتطلبها المرحلة والظروف والإحتياجات الإنسانية والثقافية والحضارية.

ولو عدنا قليلا لفكرة الرمز في العمارة فالسؤال المهم الذي نطرحه ابتداء في هذا الإطار هو: هل هناك "رموز" وأيقونات خاصة بالعمارة العربية "الإسلامية" تدل دلالات قاطعة عليها وبشكل حصري لها, وكيف اكتسبت هذه الأيقونات صفتها "الرمزية" تلك؟ أهو الشكل أم الوظيفة؟وما هو الإطار الفلسفي النظري الذي يضع تلك الأشكال والأيقونات ضمن دلالات ثقافية خاصة ومعينة بهذه الثقافة أو تلك بحيث ينفي عنها انتماءها للثقافة الإنسانية العالمية– إن كان هذا الإفتراض ممكنا وصحيحا؟

وبمعرض الإجابة عن هذه التساؤلات, يزعم الكثير من الباحثين والمفكرين في رمزية العمارة العربية "الإسلامية", ومنهم "أولج غرابار" مثلا, أن العمارة الإسلامية "تزخر" بشكل مدهش بالمعاني والرموز والدلالات المختبئة في "الأشكال" التي تستعمل بغزارة. في مقاله المنشور عام 1983 بعنوان (Symbols and Signs in Islamic Architecture) يزعم "غرابار" أنه لم يتطرق - آنئذ ومنذئذ- أي باحث بشكل جاد لهذا الموضوع الفلسفي الفني العميق. وبرغم ذلك نجد بعض الدراسات التي قدمها (Ardalan-Bakhtyar) في كتاب (Sense of Unity) وغيرها مما تطرق للمنظومة الهندسية في العمارة الإسلامية, ولكن دون الخوض بتحليلات عميقة لمدلولات الشكل والرمز. في مقاله يطرح "غرابار" فكرة أساسية مفادها أن هناك إيحاءات "سيميائية" (semantic) متعلقة بالأشكال وخاصة بالعمارة الإسلامية. ويطرح تعريفا أساسيا بين الرمز (symbol) وبين الإشارة (sign). فالإشارة يزعم "غرابار" أنها تشير لشيء ما أو لانطباع معين, بينما الرمز يعرّف الشيء ويوحي ضمنيا به لكنه – أي الرمز – لا يصفه بإحاطة كما تفعل الإشارة أو الصورة (image).

ولتوضيح مقاربة "غرابار" النظرية هذه فسنعمد لاستعارة ثلاثة أشكال هندسية لمباني اصطلح على نسبتها للعمارة "الإسلامية", لسبب ليس واضحا إن كان الشكل أو حتى الوظيفة له ارتباط مباشر به. ولنفرض –جدلا- أننا لا نعرف هذه الأشكال الثلاثة وما "ترمز" إليه. فالأول هو مبنى صرحي على شكل هندسي هو المكعب, والثاني هو بناء في القدس المحتلة يعلوه قبة نصف دائرية أو بصلية مذهبة, والثالث هو بناء صرحي مقبب ومحاط بأربعة أبراج رأسية ويعلو مصطبة ويقع بالهند. والتساؤل هو: ما هي الدلالات التي تجعلنا ندرك بأن هذه المباني الصرحية تنتمي للعمارة "الإسلامية"؟ وبكلمات أخرى ما الذي يجعلنا ندرك الأول وهو الكعبة المشرفة كأحد أهم الرموز التي تتصدر كتب العمارة الإسلامية, وأن الثاني

هو مبنى قبة الصخرة والتي يعتبرها بعض النقاد "جوهرة" العمارة الإسلامية, وأن الثالث هو تاج محل بالهند؟ ما هي الدلالات أو المعاني التي تبثها هذه المباني – إذا استثنينا الآيات القرآنية أو الكتابات – والتي تصنف هذه "الأشكال" ضمن بوتقة العمارة "الإسلامية"؟

"مثال المئذنة تفتح الباب أمام معضلة معمارية فلسفية في علاقة الشكل بالوظيفة ودلالاته الرمزية وشرعية قبوله "بدهيا" كرمز ذي دلالة ثقافية مسلم بها, وبخاصة في حالة تحور الوظيفة وانتفائها"

فلو جادلنا مجادل أن هذه "الأشكال" لها مدلول "إسلامي" فهذا الرد باطل ومردود على صاحبه بالمنطق. فما هو ارتباط "المكعب" بالإسلام, أو ارتباط القبة بشكلها نصف الكروي أو البصلي بالعمارة الإسلامية. ولو جادلنا آخر بأن الإرتباط هو "بالوظيفة" فهذه الأطروحة مردودة على أصحابها أكثر من سابقتها, بل ولهذه الأطروحة دلالات عكسية. فما هي وظيفة المكعب الأجوف بما يجعله "إسلاميا" وليس ذي دلالات ثقافية أو ثيولوجية أخرى. والشكل الثاني- قبة الصخرة- مثير للجدل كذلك من الناحية الوظيفية, إذ يثير التساؤلات حول أهميته من الناحية الوظيفية بما يجعل ارتباطه بالإسلام محوريا وبالضرورة! فهو بناء "صرحي" أقامة عبد الملك بن مروان حول الصخرة في البقعة التي عرج منها النبي (عليه الصلاة والسلام) إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج, وبذلك فليست له وظيفة "إسلامية" كالمسجد للصلاة مثلا, إنما هو بناء ذي ارتباط بحادثة تاريخية! أما الأكثر إثارة للجدل فهو الشكل الثالث, إذ ما علاقة مبنى أنشئ "كضريح" لزوجة مهراجا بالعمارة الإسلامية أو بالإسلام, وما هي أهميته وظيفيا وكيف يخدم تعاليم الإسلام؟ وفضلا عن ذلك فبعض هذه الصروح تكاد تخالف تعاليم الإسلام بوظيفتها. وإذن فما الذي يجعل هذه الأشكال "إسلامية" أو يلصقها بالثقافة والعمارة "الإسلامية"؟

للإجابة سنعرض لمثال آخر مهم هو المئذنة رغم القضايا الأخرى الجدلية التي تثيرها في موضوع "الرمزية". وهذا المثال تحديدا يورده "غرابار" في أطروحة عامة خاصة بالرمز والإشارة في مقاله, حيث يعتقد أنها إشارة (sign) لها وظيفة, لكنها تتحول "لرمز" (symbol) عندما تذكرنا بالإسلام, ويمكن أن تصبح بذاتها رمزا له دلالات على منتج ثقافي أو هوية حضارية معينة كما تفعل مئذنة جامع سامراء حين تذكرنا بمدينة سامراء مثلا. وبكلمات فلسفية أكثر عمومية, فبينما نجد أن الإشارة (sign) لها خصائص وصفات "ثابتة", فإن الرمز (symbol) خصائصه وصفاته "متغيرة".

لكننا بإعادة قراءة مداخلة "غرابار" نجد أنها ليست كافية لفهم العلاقة الجدلية بين الرمز والوظيفة – وبخاصة حين تكون الوظيفة متغيرة أو تخضع لعملية "تحوير" مستمرة, وكما هو الحال في معظم المفردات والأشكال والرموز المعمارية في العمارة "الإسلامية" – وأبرز أمثلتها المئذنة بوظيفتها "المعاصرة" التي لا علاقة لها بوظيفتها "التقليدية" التي ابتكرت لأجلها في صدر الإسلام حين كان المؤذن يعلوها للنداء للصلاة.

وهناك معضلة فلسفية أخرى متعلقة بالشكل في حالة المئذنة- وبخاصة المغايرة للمآذن بشكلها التقليدي الذي تحفل به العواصم التقليدية كالقاهرة والتي يعلوها هلال – فما الذي يمنح مئذنة جامع سامراء الحلزوني المتصاعد للسماء صفة "الإسلامية" أو مئذنة الجيرالدا بإشبيلية باسبانيا كبرج رأسي مربع عن أبراج ساعة "بيج بين" بلندن, أو حتى إحدى المسلات المصرية (كتجريد لفكرة المئذنة)؟ وهنا يمكن أن يجادل مجادل أن المئذنة بشكلها المعاصر وبعد تغير وظيفتها الأصلية يمكن أن تكون أي مبنى برجي رأسي يعلوه سماعة مكبرة للصوت, وهذا المبنى يمكن أن يكون برج ساعة "بيج بين" نفسه! فهل يكتسب برج ساعة "بيج بين" صفة "الإسلامية" لو تم تركيب سماعة نداء للصلاة عليه واستعارة الشكل في بناء مسجد ببرج مماثل للساعة؟ وهذا يفتح الباب على مصراعيه في مسألة "الأيقونات" والرموز التي تم أخذها كمسلمات ترتبط بقبولها كأشكال فقط في العمارة "الإسلامية" بحيث غدت مسألة استعارتها في العمارة العربية المعاصرة مسألة شكلية وتشكيلية ليس إلا. فهذه الأمثلة وغيرها تفتح الباب أمام معضلة معمارية فلسفية في علاقة الشكل بالوظيفة ودلالاته الرمزية وشرعية قبوله "بدهيا" كرمز ذي دلالة ثقافية مسلم بها, وبخاصة في حالة تحور الوظيفة وانتفائها أصلا في الكثير من الحالات.

طرحنا لهذه المسألة الفلسفية في مضمون الرمز في العمارة وبالذات ضمن الهوية الإسلامية, بما تتيحه هذه المساحة, في هذا الوقت بالذات يتداخل بشكل جوهري مع مسألة الهوية وارتباط الرمز بها. ولعل المئذنة في حالتنا هذه وضمن السجال الدائر في أوروبا ومسألة "الإسلاموفوبيا" يدخل ضمن أبعاد ثقافية وحضارية أكبر من مسألة علاقة الشكل بالوظيفة, ولكن ضمن مسألة العلاقة بين الذات والآخر ومدى تقبل الثقافات الغربية للرموز الدينية الإسلامية ضمن سؤال الثقافة والحضارة والهوية. ولذلك فالمئذنة هنا – كائنا ما كان شكلها – أو حتى مع انتفاء وظيفتها في الغرب, حيث يمنع الآذان أصلا على مكبرات الصوت الخارجية وكما تنوي عمله سلطات الإحتلال الآن في مدينة القدس, أصبحت رمزا لهوية معينة ذات صبغة "إسلامية" مغايرة للثقافات الأخرى بما يشير إليه المبنى الذي تقام عليه وهوية من يقوم عليه وليس لشكلها أو وظيفتها. وبكلمات أخرى, فرمزية الشكل في العمارة الإسلامية – المئذنة مثالا – تحدد احداثياتها "العلاقة الثلاثية" بين "الشكل" و "الوظيفة", والعنصر الثالث والأهم وهو "المضمون" الثقافي والبيئي والإجتماعي "والظرفي" التاريخي الذي تفرضه طبيعة العلاقة بين المحددات الثلاثة. وهذه المحددات الثلاثة لا تملي نمطا وقالبا "ثابتا" بل يخضع ناتجها لطبيعة التفاعل بين الشكل والوظيفة والمضمون الهوياتي, ومن الخطأ نسبة الشكل بذاته لثقافة أو هوية ما بل تتحدد دلالة الشكل بعلاقته بالمنظومة الثلاثية ضمن إطارها الثقافي بما يضفي عليه "رمزيته" لهذه الثقافة أو تلك.

ومن هنا فإشكالية المئذنة التي تدور رحاها مع الغرب اليوم, هي أعمق من مجرد علاقة وظيفية "إزعاجية" للغرب من خلال النداء

للصلاة عبر مكبرات الصوت, وليست متعلقة بالشكل أو الإرتفاع في سماء المدينة بأي شكل تتخذه – تجريدا كان أم نقلا معماريا حرفيا لنماذج تقليدية مع العمارة "الإسلامية"- بل هي إشكالية متجذرة في البعد الثقافي الهوياتي والتي تحدد خصائص "الرمز" – وما ترمز إليه المئذنة!

الخلاصة - فما هو الحل إذن؟

الحل للخروج من مأزق العمارة المسجدية, وبكلمات قليلة مختصرة, هو الخروج من "المحتوى" الشكلي التشكيلي" للعمارة المسجدية, وضرورة إعادة قراءتها وتقديمها بشكل يتناغم وينسجم مع المحتوى البيئي والعمراني العام المحيط بها كيلا تبدو نشازا وتخفف من انعزاليتها كعمارة صنمية حافلة "بالرموز" والمفردات المستحضرة من العصور الوسطى وكأنها "ايقونات" مقدسة, والتي "أوقفت" الزمن فتجمد عند حدودها, مع إعادة تفعيل الحديث الشريف حيث "جعلت الأرض مسجدا وطهورا". وهذا يستدعي تقديم "أفكار" حديثة لعمارة المسجد في الإسلام تندمج مع البيئة المحيطة وتطورات العصر ومفاهيمه وأنماط حياته, وهذا يشمل البيئات الإسلامية قبل المهجر!

وليد أحمد السيد

لندن في 14 يونيو 2011

الهوامش والمصادر

[1] وفاء الوفا, الجزء الأول, صفحة 257. روى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم (بعد هجرته من مكة وقدومه إلى المدينة المنورة) مكث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة, وفي صحيح مسلم أقام فيهم أربع عشرة ليلة, وأخذ مربد كلثوم بن الهدم وعمله مسجدا وأسسه وصلى فيه إلى بيت المقدس وخرج من عندهم يوم الجمعة عند ارتفاع النهار, فركب ناقته القصوى وحشد المسلمون ولبس السلاح عن يمينه وشماله وخلفه وكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا قالوا: هلم يا رسول الله الى القوة والمنعة والثروة فيقول لهم خيرا ويقول عن ناقته إنها مأمورة خلوا سبيلها فمر ببني سالم بن عوف فأتى مسجدهم الذي في وادي رانونا وأدركته صلاة الجمعة فصلى بهم هناك وكانوا مائة, وقيل أربعون وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة, ثم ركب راحلته وأرخى لها زمامها وما يحركها وهي تنظر يمينا وشمالا حتى انتهت به إلى زقاق الحسبى من بني النجار فبركت على باب أبي أيوب الأنصاري وقيل بركت أولا على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ثم ثارت وهو عليها فبركت على باب أبي أيوب ثم التقوى وثارت وبركت مبركها الأول وألقت جرانها في الأرض ورزمت فنزل عنها صلى الله عليه وسلم في بيت أبي إيوب سبعة أيام ثم بنى مسجده ثم لم يزل في بيت أبي أيوب ينزل عليه الوحي حتى ابتنى مسجده ومساكنه, وكان ابتداء بنيانه مسجده صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من السنة والأولى وكانت إقامته في دار أبي أيوب سبعة أشهر.

[2] سيرة ابن هشام, الجزء الأول صفحة 494.
[3] ابن كثير, الجزء الثاني صفحة 274.
[4] طبقات ابن سعد, الجزء الثاني صفحة 69.
[5] سيرة ابن اسحاق, الجزء الرابع صفحة 13.
[6] طبقات ابن سعد, الجزء الثاني صفحة 88.

[7] عيون الأثر, الجزء الثاني صفحة 308.
[8] للمزيد عن مساجد الرسول راجع كتاب (مساجد في السيرة النبوية), سعاد ماهر, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1987.
[9] الملل والنحل للشهرستاني, صفحة 6.
[10] إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي صفحة 27.
[11] اعلام الساجد بأحكام المساجد صفحة 27.
[12] الراوي: - المحدث: ابن الملقن - المصدر: شرح البخاري لابن الملقن - الصفحة أو الرقم: 496/5 خلاصة حكم المحدث: صحيح

[13] الراوي: أبو أمامة الباهلي المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير - الصفحة أو الرقم: 5882 خلاصة حكم المحدث: صحيح

[14] الراوي: السائب بن يزيد الثقفي المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير - الصفحة أو الرقم: 5881 خلاصة حكم المحدث: صحيح

[15] "**جعلت لي الأرض مسجدا** وطهورا ، إلا المقبرة والحمام" الراوي: أبو سعيد الخدري المحدث: ابن رجب - المصدر: فتح الباري لابن رجب - الصفحة أو الرقم: 399/2 خلاصة حكم المحدث: قد اختلف في إرساله ووصله.

[16] "**جعلت لي الأرض مسجدا** وتربتها طهورا" الراوي المحدث: الشوكاني - المصدر: السيل الجرار - الصفحة أو الرقم: 132/1 خلاصة حكم المحدث: صحيح

[17] الشكل التوضيحي تخيلي نقلا عن الروايات التاريخية حول مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم قرب تاريخ وفاته. نقلا عن كتاب (Islamic Arts, Jonathan Bloom & Sheila Blair, Phaidon, 1997, p24).
[18] حديث في صحيح مسلم رواه أبو هريرة. "**بدأ الإسلام غريبا** وسيعود كما **بدأ غريبا** . فطوبى للغرباء" الراوي:أبو هريرة, المحدث:مسلم - المصدر:صحيح مسلم- الصفحة أو الرقم:145 خلاصة حكم المحدث:صحيح

[19] راجع أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي.